امرأة من الشرق

هيثم نافل والي

الكتاب : امرأة من الشرق (رواية)
المؤلف : هيثم نافل والي
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٧
رقم الإيداع : ١٩٥٤٢ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي : I.S.B.N : 978 - 977 - 493 - 292 - 2

الناشر
شمس للنشر و الإعلام
٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة
ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)
www.shams-group.net

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

امرأة من الشرق

رواية

هيثم نافل والي

إهـداء

إلى المرأة الشرقية التي تشبه بطلة روايتنا

تلك التي رفضت الإفصاح عن اسمها الصريح

مكتفية بالتلميح "ن. ن"

لهنَّ أرفع كتابي هذا

الذي أبث فيه أحزانهن وشقاءهن

ثم انتفاضتهن

ضد واقعنا الشرقي الظالم أبداً.

تنويه

وَدَهْرٌ ناسُهُ ناسٌ صِغارٌ وإنْ كانتْ لهمْ جُثَثٌ ضِخامُ

أبو الطيب المتنبي

من الحكمة أحيانًا أن لا نحتكم إلى الحكمة!
حاجاتنا نفوسنا ، سنتابع ما سيجري دون أن يغيب عن أذهاننا لحظة أن زمن سعادة الإنسان قصيرٌ جدًا كحياته على الأرض، لا يكاد يكون له أثرٌ ، كنشوة الجنس أثناء الجماع.

هذه قصة واقعية مجردة من الإيحاء أو الرمز، لا تحتاج إلى الخيال، يكفيها واقعها الشرقي الذي خلقها!... هي نصوصٌ متفرقة ؛ نعني، كانت متفرقة، لا، لا نقصد ذلك بتاتًا، بل عنينا أن ما وصل إلينا كان مجرد قصاصات ورقية كُتبتْ بخط اليد - كيفما أُتفق - دون عناية بالمحتوى والهدف المنشود من ورائها... مذكرات من سيرة حياة امرأة عراقية الأصل وُلِدت في بغداد ، حكايتها كانت شرقية وليست عراقية، حدثت وتحدث في عالمنا الشرقي كل يوم، تحت أسماء وعناوين وأشكال مختلفة، بل في حقيقة الأمر هي ذاتها قصة حياة تلك المرأة المعذَّبة "ن.ن " بطلة روايتنا!

هنا لابد من تسجيل إعجابنا ، ليس بالنصوص التي اطلعنا عليها ، بل بمستوى العذاب والشقاء اللذين عاشتهما بطلة الرواية، ذلك الذي حوَّلها إلى آلة ميكانيكية للتحمل والصبر ؛ وسيلة للذة الرجل ولهوه ، إنسانة مجرَّدة من الإنسانية كشاعر بلا مشاعر... لكنها وفي سنوات آلامها تغيرت ، ثارت، انتفضت، كسرت القيود، عبرت الحدود سعيًا للرجوع إلى آدميتها كما خلقها الله دون تشويه...

لذلك أحببنا أن نكتبها بشكل متفرد منكود محشور بالوصف يقف بالزور يأبى مغادرته.

الأصل عشته وتعايشت معه، رسمنا بقلمنا صورة له، نفخنا فيه روح الدراما ، ظهرت كالأصل لأننا كنا صادقين في رسمها. لا نحب تمويه القارئ ، نكره خداعه ، لا نرضى ذلك... لو كنا في وطننا لاختلف الأمر ؛ هناك نتحدث معه وجهًا لوجه ، نراه ويرانا ، يستمع لنا ونستمع له ، نرى نظراته ونشعر بإحساسه... لكن هنا نتحدث معه عبر الهاتف وعن طريق الرسائل ، الأخيرة لا ترى الدموع ولا تسمع نبضات القلب الموجوع!

اعتمدنا التصوير الإنساني في وصف المواقف ، ثم أدرجنا نصوصًا تحليلية مستوحاة من ذات الواقع ننقد فيها المجتمع كلما سنحت لنا فرصة النقد البنَّاء الذي يُصلح الشأن ويقوي

العود ، حتى بات سرد الرواية وحدة متكاملة ، كل فرد فيها بطل ، فأصبحت حياة الأبطال حياة كل الناس... والنقد في أحسن أحواله ما هو إلا محاولة للتفسير ، سأفتح قلبي له بوسع وامتداد ذراعيَّ ؛ بشرط أن يكون بنَّاءً ، مكملاً ومفيدًا ، أن يذهب للمعنى ثم يبحث في الأخير عن المعنى!

حرصنا من خلال النص والمحاكاة بين شخوص روايتنا على تحقيق غايات الإنسان من خلال إنسانيته ، وتبيان الصراع الإنساني مع الأقدار وقوى الكون المتحكمة المتمكنة ، لذلك رسمنا الشخصيات كما خلقهم الله ، عرايا إلا من نفوسهم ، حاولنا أن نعيش أصل الرواية كي تظهر صادقة لا تختلف عن الحقيقة قيد أنملة حتى يؤمن بصدق وقوعها القارئ النبيه ، أو على أقل تقدير يشعر بأنها حدث يمكن أن يحدث في عالمنا الشرقي، وبالتالي نبدأ بمعالجته قبل استفحاله.

هذا كله من جانب، من جانب آخر سوف يلاحظ المتلقي بأن النص الذي سيقرأه غريبٌ محدث لم يسبقنا إليه رفيق حرفة غير الروائي العراقي محسن الرملي في "الفتيت المبعثر" فالقارئ سوف لن يجد ما كان يتوقعه أو يتصوره من رواية كهذه...

لا نريد أن نفسد عليكم حسن المتابعة ، نكتفي بهذا القدر من التنويه بانتظار ردود أفعالكم بعد إتمام قرائتها... ستعرفون

من سياق أحداثها لماذا كتبناها، وقتها سيكون حكمكم عليها كحكمنا، نحن واثقون من آدميتكم وإنسانيتكم، لا شك هنا يخامرنا، ستقولون: لابد من تدوينها، نشرها وإذاعتها.

ها نحن نأخذ برأيكم...

تابعونا إذن...

هيثم نافل والي

ألمانيا/ ميونخ - آذار ٢٠١٧

(١)

يقول الشاعر العربي " إلياس أبو شبكة " يحاكي المرأة :
(لا تقنطي إن رأيتِ الكأسَ فارغةً - يومًا ، ففي كل عامٍ ينضج العنب)

بدأت بطلة روايتنا " ن. ن " في سرد حكايتها ببساطة شديدة وسذاجة أقرب إلى براءة الطفولة دون تصُنع ، كمن يحاول أن يحيك بُساطًا من الريش،... جاء فيها:

في قلبي خوفٌ كاسحٌ كالإعصار ، يدفعني نحو الاختباء والاندثار ، أشعر بأن الحياة متواطئة ضدي ، مع الشرِّ والأشرار والأقدار ، وأنا لا أجرؤ ولم أتعود المواجهة ، لعجزي ، طبعي ، ترددي حد الانهيار... هكذا وُلِدتُ ، ترعرعت ، عشت ، انهرت ، مِتُ ؛ وحتى العِقد الثالث من عمري ، ثم انتفضتُ وتمردتُ من أجل أن أحيا الحياة التي وهبها الله لي دون سؤالي...

• • •

وُلِدت "ن. ن" في عائلة فقيرة غنية النفس وهي راضية كمن

يقبِّل يديه ظهرًا لبطن، قبل أن تعي على نفسها ومن حولها!

كان ترتيب ولادتها الثالث من الإناث والرابع بعد الذكور ، في حي شعبي من رصافة بغداد ، الأب عاملٌ ماهرٌ في فن النجارة، عمل في ورشة لثلاثة عقود وسط بغداد، مات وهو يعمل فيها ، فكان نصيب أسرته نصف دينار في الأسبوع كراتب تقاعدي يعين عائلته على المضي في الحياة دون عوز أو فاقة.!

البيت عبارة عن حجرة جُدرانها عارية، سكنتها الرطوبة منذ زمنٍ طويل ، وحوش واسع يمكن لمائة من الأغنام الرعي فيه... الجيران من صغيرهم إلى كبيرهم طيبون، ويمكن في لحظة أن ينقلبوا ، ثم يرجعوا لأصلهم المعتاد ، ملائكة لا ينطقون إلا بالرحمة.

الأم لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة، الحياة علمتها مبادئ لا نجدها في المدارس ، فكانت حاسمة ، طيبة ورحيمة في ذات الوقت، ولها حاسة فريدة في معرفة حاجات أبنائها دون أن يشيروا إليها فتسبقهم في إحضارها وكأنها تعلم بأمرهم دون لغة أو إيماءة.!

أكبر إخوتها أقساهم وأطيبهم! كان عنوانًا للتناقض البشري،

تجد فيه كل ما هو غريب وقريب، معتدل وصارخ، جميل وقبيح، سيء رديء وعظيم يمكن تخليده. تزوج بفتاة من دينه عن حُبٍّ مجنونٍ ملك عليه كل حياته، فلم يعش بعدها إلا لها؛ نسي العالم ومن حوله، ولم يفق من غيبوبة حُبه لحظة، لكنه وفي ذات الوقت كان يخونها ببراءة ضمير لا يملكه قديس وهو مرتاح ينام ملء جفنيه وكأن ما أتى به من فعل شنيع صلاةً للرب، فظلَّ في عين الناس رجل كبير كالفريضة يأنسون فيه البراءة ويتوسمون الذمة.

(٢)

تصف بطلة روايتنا حياتها بدقة فوق العادة كمن يُصرُّ على شطر الشعرة نصفين:

حياتي مع زوجي كانت كالزقّوم ، مثل حياة أهل النار والأشرار في جهنم ؛ رفضي كان عجزي ، وعندما أتذكر طفولتي التي لم أعشها أبكي من الحسرة.!

عشتُ خرساء ، أقصد ، لا أتكلم إلا ما ندر ، ألتقط الصور وأخزِّنها في ذاكرتي ، أشاهد الحياة عن بُعد ، لا أشترك في لعبتها ، طبعي كان هادئًا لا أحدث من حولي أيما ضوضاء ، أتحرك كالظل بلا صوت ، من يكون بقُربي لا يحس بوجودي ، لذلك كان الأمل يتفتت في داخلي ثم يزول كخيط البخور بسرعة كالدخان ؛ وقتها أبدأ أتحدث مع نفسي كالمجنونة ؛ بصمتٍ طبعًا ، لأن الحديث بصوت عالٍ يعني نهايتي المحتومة:

" لماذا وُلِدتُ في هذه الأسرة ؟ لماذا كان ظُلمي وتزويجي بهذه الطريقة؟ بل ، لماذا لم يلحقني أهلي بالمدرسة وبقيت أتمنى تعلم القراءة والكتابة ؟ كانت هذه أمنيتي لسنواتٍ

طوال، حققتها فيما بعد ، لكن ، بعد أن أصبحتُ امرأةً في الثلاثين ، وقتما دخلت في صف مسائي لمحو الأمية... هكذا تعلمت الأبجدية وفي رقبتي ثلاثة أطفال ، أكبرهم في الرابعة عشر ، دون مورد يحقق لنا استقرارنا بشكل إنساني كريم... التجأتُ لوالدتي ، وقتها كانت لي خير المعين وما تبقى من عالمي الضرير الأخير.

ثم تسأل نفسها كشخص متوجع يحتضر:

- متى تفض سيرتي؟

(٣)

تستمر في السرد بنبرة جلية واضحة كالدمع الذي يفضح صاحبه:

كنتُ في الخامسة عشر من عمري طفلة صغيرة كالدُّمية، ألعب مع الأولاد، لا أعي على موت أو حياة، جميلة، طويلة وشعر رأسي الأسود منثور فوق كتفي كالشلال؛ سمراء، بريئة مثل باقي الأطفال، لم أختلف عنهم في شيء... حتى جاء اليوم الذي قرَّر فيه أهلي تزويجي من رجل لم أره في حياتي من قبل... رفضتُ، تألمتُ، امتنعتُ عن الأكل أسبوعًا كاملاً، لكن كل احتجاجاتي البريئة لم تكن كافية للحيلولة دون إتمام المشروع.

• • •

قبل هذا الوقت كانت أمنياتي بسيطة أقرب إلى السذاجة، لا أصدِّقها اليوم من كل عقلي، أحيانًا وعندما أتذكرها أجدها غريبة غير واقعية، كنت أحلم بأن أكون مشهورة، شخصًا مهمًا في الحياة، يشير الناس إليَّ ويقولون، هذه "ن. ن"،

أرسم طريقي بنفسي، أتمتع بحريتي كما أشتهي، أتزوج بمن أحب وأربي أولادي على الأخلاق والفضيلة... لكن ما نحلم به شيء ، وما نعيشه من واقع شرقي موبوء بالمرض الاجتماعي والنفسي شيئًا آخر تمامًا، شيء أقرب إلى الفساد، أشنع من الرذيلة!.

ثم تبدأ بمناجاة نفسها كالجريحة تترجم هواجسها على طريقتها كالشخص الذي يهرف بقولها :

أعرف بأن هناك الكثير من التعساء مثلي يندبون حظهم لأنهم خُلقوا في هذا العصر الجهنمي الذي ضاعت فيه القيم ، تراجعت الأخلاق ، اختلطت المقاييس وباتت وكأنها ضربًا من الوهم، أو شيئًا من التنجيم لا يمكن الوثوق به، فأصبح كل شخص يغَّني على ليلاه كما يفهمها ، مثل أناس يدبون على الأرض في عصور ما قبل التاريخ وكل همهم معداتهم ونزواتهم!.

(٤)

نعم، أعترف، كان لأهلي أسبابهم المنطقية لفعل ذلك، لكنها لم تكن تتعلق بي، كانت أسبابًا تعود لتصرفات أختي التي تكبرني بسنوات؛ لا أريد التحدث عنها الآن؛ ربما أذكرها فيما بعد، أردت فقط سرد ذكرياتي الخاصة، أعني، فرش أحزاني على الناس وعلى الطريق العام لأخذ العِبرة منها ليس إلا.

• • •

كانت " ن.ن " فتاة مطمئنة إلى الحياة كطائر الشرشر الجبلي لها غيرة الفنان على عمله، وحساسيتها مفرطة كحساسية الفقير تجاه الأثرياء، رقيقة كالنسمة، تختنق بالكلمات لو انفعلت، تجدها لحظتها أو تتصورها بأنها لابد وستنفق، فتحاول وقتها استيعابها، ثم المبادرة بتهدئتها... كانت طيبة كقديسة، ساذجة كالطفل، ورحيمة كالأم.

حاولت دائمًا أن تكون شيئًا، لكن، ليس كل ما يحلم به المرء يدركه، يد الأقدار متسلطة، وإرادة الإنسان مهما تكن حرة

فهي مقيدة بألف قيد، تبدأ بالأعراف وتنتهي بالتقاليد، وغالبًا ما تكون تلك القيود سلاسل فولاذية صنعها الإنسان بنفسه لتقيد أخته وأخيه باسم الدين والأخلاق التي يتهرب منهما محاولة منه أن يمارس نقيضها بالسر والخفاء، فكلما همَّ بالانحراف ينظر حوله وليس لِما فوق رأسه!.

(٥)

الرهبة لا تأتي من شيء نفهمه ، بل من أمر نجهله!

لا بكلمة استكبار ولا بلهجة استهتار لم أمتلك نفسي وقتها كمن تبلد حماره ، تمت خطوبتي وزواجي من الذي رماه القدر أمامي وسيكون له الفضل في هدم وتفتيت إنسانيتي بلمح البصر ، وأنا لا أعي ما حولي أو أعرف بالضبط ما يحصل... لم أشعر تجاه ذلك الرجل الغريب الذي أصبح فجأة زوجًا لي بأي عاطفة أو شعور ، بل على العكس ، كرهته حد الموت ، كيف لا وهو الذي اغتصبني منذ الليلة الأولى لزواجي على أرض الغرفة الجرداء الخاوية الكئيبة التي كانت لا تحوي أي قطعة أثاث كما معهود لفتاة في سني تتزوج من رجل لا همَّ له غير معاقرة الخمر والنساء ، ولأن الغرفة فارغة كانت ترجع صدى تنهداتي إلى قلبي الذي جرحته الحياة مبكرًا ، فتزيده أنينًا وعُمقًا في جراحه...

كان أهله يسمعون صراخي ومقاومتي ، كنت أرفض بقوة

وبشدة اغتصابي، لكنه تمكن مني، وأهله يطلقون الزغاريد فرحين لجُرم ابنهم الكريه،.

وقتها، لم يعاقبه أحد، ولا حتى الله، فباتت الأرض التي تحتها رخوة، هكذا كانت تشعر، بل أكثر رخاوة من موجة!

• • •

حياتها قبل الزواج كانت هادئة، رتيبة، تكاد تكون غير مرئية لا يكترث لها أحد مثل غابة يحتضنها الضباب، مثل نغمة صوفيه، سرعان ما تحولت إلى نقمة تُذكي الأحقاد، إلى نزوة لقتل الأنفاس، نبذ الماضي والهروب إلى ما راء الزمن لعله ينقذها مما هي عليه... صراخها غير المسموع كان كحشرجة الأنين، كالنحيب المنغم، يدمي الروح ويصهر القلب بأوجاع لا تريد أن تنتهي، كالصرخات التي يطلقها الطاووس من صدره، من كل قلبه، بقوة رهيبة... فأصبحت " ن.ن " فجأة متخاذلة الذهن، واهنة العظم، ومتراجعة الذوق، ببساطة، ثملة بالحزن مثل هاوية يعصف فيها الكرب المخلوط بالفزع والرهبة من كل جانب كمركب وسط لجة البحر المجنون الهائج.

(٦)

الملل عنكبوت صامت

في نفس عام الشؤم ؛ عرفت فيه كل الصفات التي تجعل المرأة تنفر من زوجها ، ثم تمقته ، وتتمنى أن لا تراه للحظة أمامها... عُرف عن زوجها الذي يُدعى " س " طباعه الشرسة ، المتهكمة ، الغادرة غير المسؤولة... طويل مثل السوط ، ضعيف كالمسمار ، حليق الوجه كامرأة ، وغروره لعين كالأجرام ، مهلكًا لا يمكن تحمله أو العيش معه ، أو تحت سطوته... كان فاسدًا بكل معنى الكلمة ، يده كلسانه ، لا يعرف ولا يميِّز الحلال عن الحرام ، لا يفارق الخمر ولا ملاحقته للنساء بالسر والعلن...

حتى جاء يومٌ أرجعها إلى أهلها ، السبب... نيته في الزواج من فتاة أخرى!

تغلغل الألم في قلب المسكينة " ن. ن " كما يتغلغل القدَم في موجة ماء...

(٧)

كمن أراد أن يشعر ففنىّ!

طلَّقني هادم راحتي بسبب نزوة جنسية جديدة ، حاجة كان يشعر بها ويريد تجريبها ، لا تهمه أعراف ، أو تقاليد ، أو عائلة ، همُّه كان أكبر من ذلك بكثير ، كان يرغب بمضاجعة فتاة تعرَّف عليها منذ فترة قصيرة ، كنت أعرف ، أشعر ، وأحسُّ بكل ما يفكّر به ، لكن ، لا حيلة لي على تغيير واقعي ، كما قلت ؛ كنت طفلةً لم أبلغ سِنَّ الرُشد بعد.

ماذا كان في وسعي أن أفعل؟ أعرف مكانتي وسط قومي ، امرأة لا حول لها ولا قوة ، ناقصة عقل ودين ؛ كما يدعون!

(٨)

للنظرات أحيانًا قوة تضاهي قوة أحجار الرجم

رجعت لأهلي كسيرة الحال والخاطر ، تلعب بي أهواء وإغواء الحياة كما تشاء ، كمركبٍ وسط لُجة البحر كُسِرت أشرعته فبقيت تهزه الريح كما تشتهي...

نظرات إخوتي كانت كالسهام المسمومة تمضي في جسدي ، كالشهاب في الفضاء ، يحمِّلونني أسباب وتبعات طلاقي الذي لم أختره ، كما لم اختر قرار زواجي من قبل.

حاولتُ مِرارًا أن أشرح لهم موقفي وتصرفاته ، لكن ، من لا يريد أن يقتنع لن يقتنع إلا إذا شاء ، ولم أفلح ، فعشتُ أمرَّ وأقسى أيام حياتي ، كنت أحيا كالمنبوذة ، أو كالتي اقترفت خطيئة لا تُغتفر ، لم يقترب مني أحد غير أمي.

خوفهم وعدم اقترابهم مني جعلني أشعر في أحيانٍ كثيرة بأنني مصابة بالجرب ، فزاد هذا من إحباطي ويأسي ، من وحدتي وعزلتي ، وكدتُ أفقد الأمل في الحياة.

(٩)

من يعرف الناس على حقيقتهم
يشكر الله على وحدته وعزلته!

بعد خمسة أشهر طلَّق فتاته الجديدة، واعتذر أمام أهلي عن فعلته...

رجعتُ مرة أخرى إلى غرفة الجحيم التي كم كنتُ سعيدة وقتما غادرتها، ولم أفصح عن سعادتي لأحد، ماتت سعادتي في قلبي كأحلام مراهقتي التي لم أعشها مرة أخرى من جديد قبل أن تُولد.

بيت عمي غريب، كئيب لم أعتده رغم محاولاتي المستميتة مثل كهوف الوحوش، لن تجد شيئًا طبيعيًا فيه، بدءًا من الأب وانتهاءً بأصغر فرد فيهم، لن تجد الضحكة أو الابتسامة أو الحديث والمسامرة كما يعرفها الناس الأتقياء الأسوياء، لن تجد غير الصراخ والعويل والنباح وكلمات يخجل القلم من تدوينها لبشاعتها لِما تحمل من فُحش وفِسق عارٍ من الحياء أأبى ذكره...

رجعت إلى النقطة الأولى التي بدأتُ منها ، الحُجرة التي أمقتها ، أكرهها ولا أطيق رؤيتها ، مرغمة كنتُ حدَّ نخاع العظم مثل أسير حرب في أيدي الأعداء لا يملك من أمره غير الخضوع والانصياع...

(١٠)

في عام الشقاء أصبحت حاملاً بطفلي الثاني ، كنت في شهري السابع ، عمري وقتها تجاوز سِنَّ المراهقة ، التاسعة عشر... شعرت في ليلة بآلام مبرحة في بطني فجأة ، طلبت منه أن يأخذني إلى المستشفى ، كان كما عهدته سكرانَ لا يعي لحياة أو موت كالصخر...

بدأت الآلام تمزِّق أحشائي كعذاب أيامي التي أحياها في بيتي الزوجي ، وقتها لم أتحملها ، تمنيتُ الموت من كل قلبي ولم يمنحه الله لي ولم يستجب لنداءاتي أو توسلاتي ، أسمع شخير زوجي الغارق في النوم وأنا أصرخ باكية ، بالكاد تخرج الكلمات من حلقي كأنني مختنقة بها.

بقيتُ كورقة مبللة لا تنفع بعد لشيء حتى الصباح ، أرفس الأرض بقدمي كطير دُبح على يد غير متمرس ، يرقص متألما على الأرض ورقبته متدلية بين جناحية مضرجًا بالدماء.

(١١)

عند الفجر استيقظ على صراخي الذي لم ينقطع طوال الليل، نقلني بعد توسل إلى المستشفى، هناك تمت ولادتي الثانية، بعد يومين مات المولود الذي لم يسمح لي الدهر حتى بإطلاق اسم له!

كانت ساعات أليمة محملة بالعذاب والشقاء لا يمكن محوها من الذاكرة، ربما إلا بكيّ الرأس بالنار!

(١٢)

كان عمي "ح" رعديد من نسل إبليس، يشبه ابنه - زوجي - في كل شيء ، سبحان الله ، قطرة ماء انفلقت قطرتين ، يتشابهان في الشرِّ بشكل خرافي لا يُصدق ، أما الخير فلن أتحدث فيه ، لأنه غائب عن ناموسهما ، لا يقربانه... وما أن يخطو الرعديد بخطواته الثقيلة في داره حتى يبدأ بالصراخ الذي يعلو الآفاق بصوته القبيح ، وبدنه يرتعش كرعشة مصدور:

- ما هذا ، لماذا لم تجعلوا الغرفة باردة ؟!

ثمَ يردف بوقاحة غريبة:

- قبحكم الله ، ألم تعرفوا بأني سأصل الآن ؟

يشرع باستهتار صارخ وهو يدمدم:

- لتساقوا جميعًا كالجواري في عهد الجاهلية.

يضحك بفجور وهو يدق بقبضة يده على بطنه الممتلئة كخزان المياه ، يأمرهم:

- هاتوا لي خمري وكأسي ومزتي ، هيا ، أغلقوا الباب من خلفكم ، لا أريد سماع صوت إبرة وهي تسقط على الأرض.

وهو يشير بيده الغليظة القصيرة التي تشبه مجدافًا مكسورًا:
- إني أحذركم يا أولاد الأفاعي، سأقتلكم جميعًا بلا رحمة ولا أجعل نفسي تنطق بحسرة.
عندها يصرخ بمرح كعادته:
- ليأخذكم إبليس من دوني.

"ح" طويل القامة، عريض المنكبين، له رأس الثور، أحمر الوجه، في صوته رنَّة كالدف المثقوب، غالبًا ما يتباهى بلبسه التراثي الذي يتقلده أينما كان حتى في داره، يعمل دوارًا لشراء القطع الذهبية والفضية من الناس، وميزانه غير العادل يحمله معه ككرشه وهو فخور بهما... أميٌّ ويجهل حتى أسماء أولاده، لا يجيد سوى بعض العمليات الحسابية التي تساعده على البيع والشراء.

في مساءٍ زحفَ الظلام على الأرض رويدًا كاللص، طردنا المعتوه بعد أن لعبت كؤوس الخمر برأسه، باتَ يضحك بهستيرية غريبة توهم لنا بأنه يصرخ ويتوجع من شدة الألم، عندها لم يعد يعرف نفسه، إن كان "ح" أو قردًا... يهتف بجنون:
- والله لو كان في هذا البلد ميزانٌ واحدٌ عادلٌ كميزاني؛ لامتلأت السجون وفرغت القصور!

أطرق بامتعاض:

- ماذا يعني؟ أنا صعلوك تخافني الشياطين.

عندها قذف بنا في الشارع وهو يطلق لعناته وزفراته التي تطايرت من فمه كالرذاذ، يزمجر وينبش الأرض كالديك، يهتف بكل قذارة:

- أُسرة لا تعرف الموت ولا الحياة!

يعيط كمن يداري عجزه:

- لا أريد أن أرى أحدًا منكم هنا، أبادَ الله نسلكم وأبعدكم عن نعمته.

وهو يضحك بسفاهة قاتلة : ها... ها... ها...

في ذلك المساء توجهنا إلى بيت أهلي، طرقنا بابهم بقوة جنونية كأننا متظاهرين يودون اقتحام حرمة الدار... فتحت لنا أمي الباب بقلق والخوف تعلق بجسدها كأزرار ثوبها، وإذا ترى عائلة السيد السكران شبه عراة يبكون (كبارهم وصغارهم)، يدمدمون بانكسار وخيبة وخجل: لقد طردنا المعتوه.

(١٣)

الماضي لن يكون مرغوبًا إذا سعى لتسيير الحياة الآتية

في يوم من أيام العذاب؛ قرر زوجي بعد أن تشاجر مع أهله ونحن نسكن عندهم كما نوهت في غرفة شبه مظلمة ذات النافذة الواحدة التي تطل على غرفة الجلوس الواسعة ومنها أهله علينا في النهار والليل يتنصتون ويسترقون الرؤيا كما يحلو لهم خاصة وأن النافذة الزجاجية لا تقف خلفها غير ستارة غير سميكة لا تحمي حتى من الضوء، كان هذا طبع دائم فيهم لم يتغير، حتى قرر زوجي كما قلت في أحد الأيام دون أن يأخذ رأيي، أو موافقتي، ولا حتى أن يكلف نفسه لسؤالي وكأنني قطعة أثاث، أو شيء من الأشياء التي يملكها فيأخذها أو يرميها متى ما يشاء وكيفما تسوغ له نفسه؛ قرر أن ننتقل إلى قرية نائية على الحدود العراقية السورية، ولا أعرف الحكمة من أن نتخذ من تلك القرية النائية سكنًا لنا؟! لكنني وبهواجسي ومعرفتي له مع الوقت حزرت السبب، وعرفت بأن نيته كانت الاقتراب من فتاة جديدة تعرَّف عليها

في مكان ما، بعدها فقد السيطرة على نفسه، لم يعد يستطيع التحكم في إغوائه، أو شهواته، أو غرائزه الجنسية حيال تلك الفتاة... وكان حدسي للأسف صحيحًا مائه بالمائة ، وهنا كمنت الكارثة... تحايل عليَّ وافتعل تلك المشاجرة مع أهله وجرجرني معه إلى تلك القرية النائية ليكون مع الاثنتين في وقت واحد، أنا أخدمه كزوجة، والثانية تخدمه كعشيقة...

يا لها من سفالة لا أجرؤ على وصفها بالكلمات!!

• • •

كنت في حالة من اليأس والقنوط بشكل لا يوصف، أهذي مع نفسي، أصرخ بأولادي الذين لا ذنب لهم، مهتاجة، عصبية، لا أطيق سماع كلمة تقال، لم يكن هذا بالأمر المستحب، كنت أتألم لحالي دون أن أفصح لأحد، انهياري الداخلي حينها كان أسوأ شيء عشته في حياتي، التصميم وقتما يصبح هشًا تفقد الإرادة سموها وقوتها ، تكون الأخيرة كالحلم ، كالسراب والضباب...

هكذا بتُّ أعيش تحت وزر خطيئة وظلم زوجي الذي تم اختياره لي من قبل أهلي دون أن يأخذوا رأيي أو يعيروا لرغبتي أدنى اهتمام.

(١٤)

المسألة لم تكن كذلك بالضبط ، المرارة هي إني وقتها جرجرت ابني وابنتي معي وهو لا يعي ما يفعل ، بل المصيبة هو يعرفها بأني حامل في طفلي الثالث!

كان يتركنا لأيام لوحدنا لا أعرف أين يذهب ولا حتى ماذا يعمل... يتركنا دون مصروف ، كان يتوجب عليَّ أن أُطعم أبنائي الثلاثة إن صحَّ التعبير ، فالجنين كان ينمو في أحشائي وأنا لا أملك ما أسدُّ به رمقي ، من أين آتي بالمال لأشتري الشراب والطعام؟ هو لا يفكر بنا ، كانت أهواؤه ورغباته كل عالمه ، نحن كنا في حياته مجرد وسيلة ، تعزية ، قضاء حاجة لا أكثر...

شعور كريه عندما يشعر الإنسان بأنه هكذا كالبقرة التي تُستغل!.

نعم ، هذا كان شعوري الجريح بقلب موجوع لما يحصل لي ولأولادي.

لم تكن حياتي طبيعية ، إحساسي بالحياة يضعف كل يوم كالأمل الذي بدأت لا أؤمن بوجوده ، أيامي مأساوية حزينة ،

لغتها دموع صامتة خرساء ، بدني بدأ عليه آثار الهدم ، ونفسيتي الضياع ، ولا أرجو وقتها غير الخلاص ، بأي طريقة كانت، أسهلها الموت، وأقساها البقاء!.

(١٥)

مضت الأيام بنا ثقيلة كوقع المرض ونحن لا نصبِّر أنفسنا إلا بالدموع...

اتصلتُ بأمي لعلَّها تجد طريقة ما تخلِّصنا مما نحن فيه... نصحتني بالعودة دون إخطاره... كان ينقصني المال والجرأة المسافة بعيدة وأنا لم أتعود السفر لوحدي قط، صغيرة كنت لم أتجاوز العشرين في مجتمع شرقي بغيض لا يسمع ولا يرى ، لكنه يصلي على كيفه وعلى طريقته ويملئ الكون بهتافاته.

(١٦)

يبقى الإنسان متسلطًا
حتى لو كان يمارس هوايته تلك اللعينة على حشرة!

حديث الناس عن زوجي صار على كل لسان؛ خروجه ودخوله مع عشيقته أصبح أمرًا لا يُطاق ولا يُحتمل، حتى بدأتُ أخاف العُزلة والوحدة وكأن هناك من يتربص بي لإيذائي نتيجة أفعال زوجي الشنيعة البشعة، خاصة ونحن نعيش في قرية، الصدى يكون فيها واضحًا مدويًا مجلجلاً لو أحدهم همس، فما بالكم لو أحدهم تحدث، أو صرخ؟!

(١٧)

وقتما يقرر الإنسان السير في غاية
تتهيأ الأمور الأخرى من تلقاء نفسها

عزمتُ أمري في نهاية المطاف رغم الخوف وزوجي مجلل بالعار ؛ بأن أطلب من جيراننا بعض النقود بغية العودة إلى بغداد حيث أهلي... تم لي ذلك بعد محاولات كثيرة فاشلة ، هربت أخيرًا مع طفليّ الصغيرين ومن كان في رحمي وأنا أشعر بالرعب يمتصني في نهار رملي لم يكن صافيًا كأنه الغبش، أجرجر أذيال الذل والخيبة ورائي كثوبي وظلي.

وصلت بيت أهلي في أول الليل منهارة متهالكة وصغيريَّ يكادان يشهقان بالموت من التعب والجوع والعطش...

لم يستقبلني أي فرد من أفراد أسرتي غير دموع أمي ، ارتميتُ في أحضانها كنعجة مذبوحة لا نبض يدق في صدرها ، وصغيريّ يبكيان بشكل مروع ، منظرهما البائس كان يفتت الصخر... نمنا كيفما أتفق كالقتلة دون أن نحس ، حتى ظُهر اليوم التالي.

(١٨)

إلى متى نبقى نخاف الخوف ، نهرب من الهروب ، نختبئ عند المواجهة ونهاب الحياة ؟!

يخال لي بأن في مجتمعاتنا الشرقية يمكنهم بسهولة وخفة كخفة السحرة أن يقتلعوا شخصية المرأة الإنسانية من جذورها ويقدمونها كضحية مثل كبش العيد، بعدها يضحكون ويحتفلون بانتصارهم المزعوم الموهوم، ثم يصلّون منشرحي النفوس وكأنهم لم يأتوا بخطيئة ولم تتلوث أياديهم بالإثم ، يجرِّدونها من كل شيء كما يجرِّد المرء الشوكة من إصبعه!

لم أكن يومًا بليدة ، حمقاء ، أو خرقاء ، بل مجتمعي الشرقي الذي وُلدتُ فيه كان يحب - حدَّ الهوس - أن أكون ضعيفة ، واهنة ، مرتبكة لا تميز بين السبورة والطباشير ، على وزن ما يقال في المثل الشعبي العراقي الدارج " الجك من البك " ولو حاولت مجادلتهم أو النفور منهم بغية الخلاص سيقولون عني وقحة في أبسط تقدير ، إن لم يطلقوا عليّ لقب فاجرة ،

كوني عارضت زوجي وفعلت غير ما يطلبه مني، حتى لو كانت رغبته كفرًا وفسقا!.. قطع الله ألسنتهم تلك التي يتقولون بها على من هو أرفع وأنقى منهم شأنا وأخلاقنا، كرمًا وتقوى...

والشاعر العربي يقول:

متى يستقيم الظل إذا كان العود أعوج؟

(١٩)

الأم هي الأم، لا تقدر أن تكون إلا كذلك؛ تخاف على أطفالها حتى ولو كبروا، هي لا تعرف في حياتها إلا أن تفعل ذلك، وإن لم تجد ما تخافه عليهم اخترعت الخوف بفطرة ربانية لا يمكن وصفها، لذلك نجدها في حالات كثيرة تصبر وتتحمل وتستمر في حياتها على نمط خوفها.

كنتُ إحداهن، لا أختلف عنهن قيد أنملة، أبكي قبل أن أرى دموع أولادي تتساقط، وقبل أن يضحكوا أشجعهم، فأضحك من كل قلبي معهم، لا أنام إلا بعد الاطمئنان بأنهم رقدوا بسلام، لا أشتهي الطعام إلا بوجودهم، وما فرحت يومًا لنفسي، كانت غبطتي في الحياة وسعادتي عندما أراهم ينجحون، حتى شككت يومًا بقواي العقلية وقلت أحدث نفسي: لماذا أنا هكذا وكأني لا أعيش إلا لهم، ولا أحيا الحياة ولا أريدها إلا من أجلهم، من أجل أن أكون بقربهم أدفعهم نحو الصعود والارتقاء في سلم الحياة.

وعندما أنتهي من تأملاتي، أجيب ذاتي: أنا مقتنعة بما أفعل، سعيدة بما أقدمه بطيب خاطر راقٍ خالٍ من الأنانية،

والأخيرة لم أعرفها قط في حياتي ، خاصة لو تعلق الأمر بأولادي رغم طبيعتي البشرية التي جبلنا الله عليها...

ببساطة ، كنت ومازلت لا أملك من نفسي شيئًا ، وما عندي لهم فقط.

(٢٠)

للكلمات أحيانًا القدرة على الشنق أقسى من الحبال!

الضرب كان كالسبِّ ، كما الكلمات النابية الفاحشة التي يطلقها أخجل من ذكرها ، زوجي لا يجيد من لغة غيرها ، هذا كل ما يقع ضمن حدود علاقتنا ومعاملته لي ولأولادي...

على هذا المنوال عشتُ معه ، بكيت ، قُهرت ، عانيت ، ثم قبلت ، رضخت ورضيت ، لكنني لم أغفر له قط ما كان يفعله ما حييت.

ماذا أتذكر؟ هل عندما رفع حذاءه ليضرب ابنه الذي من صُلبه كي يقول تذكر ذلك ولا تنسى بأنني أحدثك الآن ، وكلما نسيت تذكر الحذاء ، وقتها لن تنسَ أباك وما أوصاك؟! ماذا يتوقع المرء من أم ترى ابنها الذي لم يتجاوز التاسعة ، فلذة قلبها يهان بهذه الطريقة القذرة من أجل لا شيء؟ ... ساعتها تمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني كيلا أرى نظرات طفلي المنكسرة أمامي وهو يرتعش متحزمًا بالخوف يبغي

الفرار ولا يعرف إلى أين!...

أم وقتما عثرت عليه في ظُهر لن أنساه أبدًا على سرير نومي مع ابنة الجيران يمارس اللواط معها ؟

ماذا أقول؟ في قلبي لوعة، وفي نفسي آلاف الجراح النازفة التي تأبى التوقف، وعينيَّ تسيل منهما دموع حارة سخية لم يرحمها الدهر ولا أقرب الناس يومًا.

(٢١)

بعد أن حقَّق زوجي مبتغاة من تلك العشيقة تركها وشأنها ؛ كما في المرات السابقة التي تعودتُ عليها ، وعرفت بأن نهاية المحاولة هي ذاتها : العودة نادمًا متباكيا أمام أهلي لقبول توبته.

(٢٢)

جرجرني معه من جديد لأحيا زوجة وليس طليقة حُرة كما كنت قد تمنيت وعبرت عن رغبتي لأهلي التي مقتوها وأسمعوني من مُرِّ الكلام أقساه... هانت عليّ نفسي، وبدلاً من أعد أغراضي للعودة معه بلعت كمية من الحبوب التي وجدتها لحظتها أمامي ودون تفكير كثير بحكم اليأس والمعاناة، انتحرت.

ماذا تتوقعون؟

هذه نهاية طبيعية لامرأة مثلي عانت مما رأته! لماذا يتطلب مني النقيض؟ هل من أجل أن أكون جارية مستباحة لزوجي الشرعي؟ أم لأستمر في عذاب دائم ثم أطق دون أن يعلم من أمري أحد؟

لذلك، فضلت التخلص من حياتي بيدي لأريح وأرتاح، هذا ما أقدمت عليه بنفس راضية كل الرضا، وبروح لا تبغي من خالقها غير الخلاص!...

(٢٣)

أربعة أيام كاملة وأنا طريحة الفراش في المستشفى؛ شاهدتُ الموت فيها، عشت تفاصيله اللذيذة التي كنت أتمناها، لم أع على الحياة في تلكم الأيام... لكن القدر شاء وأحكم قراره، أن أستمر في لعبتي مع الحياة وسط هذا الشذوذ الجهنمي الذي لا يطاق بسبب أفعال زوجي الآثم المغروس والغائص في وحل الرذيلة حتى قمة رأسه.

(٢٤)

بعد أن أخرجوني من المستشفى كنت نحيلة بشكل مرعب وهزيلة كالمسمار، منهكة لا أقوى على الوقوف...

عاد أهلي من جديد يطالبونني بالعودة مع زوجي بحجة أولادي!

(٢٥)

رضختُ صاغرة، عدت معه، ابني ترك مدرسته بسبب تلك الرحلة اللعينة وظل بلا توجيه مدرسي، فوافقت من أجله، عدت كجارية ذليلة متعلقة بخيط من الرجاء، كنت أرى ذلك الخيط ماثلاً أمامي، رفيع كخيط الحرير، اسمه رحمة الله.

(٢٦)

بعد تلك المشاجرة التي افتعلها مع أهله رفضوا أن نعيش معهم من جديد، أمه قاتلت، استبسلت من أجل أن لا ترانا في البيت بعد ذلك اليوم.

أخذنا بعضنا وذهبنا متجهين إلى بيت شقيقته التي تصغره بسنتين. كانت متزوجة من رجل سكير لعين، مارد، زنديق لا يختلف كثيرًا عن زوجي إلا بالشكل والاسم؛ كان بيتهم في حي شعبي بلا باب، أعني، باب البيت كانت مجرد ستارة، يدخل منها ويخرج من يشاء بلا حساب كالريح.

(٢٧)

في ذات يوم كنت لوحدى مع ابنتي الصغيرة أغسل ملابس العائلة في طست وسط الحوش ، وإذا بزوج أخته يحاول التحرش بي جنسيًا محاولة منه لاغتصابي عنوة... صحت ، عطت ، صرخت ، حاولت الهرب خارج البيت دون فائدة ، كان قويًا وأنا امرأة لا أقوى على رده ، ابنتي لحظتها بإلهام رباني بدأت تصرخ كأنها شعرت بأن أمها في مأزق ، زعيقي كان عاليًا يجرح الأجواء ، ولم انتبه على نفسي إلا برجل من الجيران كان قد سمع مناجاتي وأنا أطلب النجدة والرحمة مضافًا لصراخ ابنتي الصغيرة ، دخل علينا ، أنقذني بمعجزة من براثن الشيطان ؛ زوج أخته السكير الذي لا يعرف الله!.

(٢٨)

حين عاد زوجي إلى البيت في المساء كنت أنا مازلت عند الجيران وفي حمايتهم، هم الذين أنقذوني؛ سأل عني وعرف ما جرى، تشاجر مع زوج أخته، قرر من فوره كما في كل مرة دون الرجوع لي أن نسكن عند أهلي ، موافقتي أو رفضي كانت من الأمور التي يجهلها جهلاً مطبقًا، لا تعنيه بالمرة، وهو الذي لا يملك حق سيارة أجرة تقلنا إليهم.

(٢٩)

لابد من أن أروي هذه الحادثة ، كان بطلها سالب راحتي زوجي، له ابن أخت يدعى قيصر ، في الأشهر الأخيرة كانت حياته سلسلة من العذاب والأرق ، لياليه تملأها الكوابيس والأحلام المرعبة التي تجعل من نهاره غمًا وقلقا متواصلاً ، لكنه في أخر المطاف حصل على ما كان يتمنى... أقنع عائلة حبيبته التي كانت ترفضه بإصرار لا يعرفه سوى البحر وبعد تدخلات الطيبين حصلت الخطوبة التي كان يحلم بها منذ أشهر... دعانا لحفل زفافه كالآخرين مثل بقية خلق الله ، فشد زوجي حزامه ينوي الشر الذي أجهل فصله ، أنتم تعرفونه ، سمعته يقطر منها الخمر كمرزيب المياه ، تفوح منه رائحة الحانات دائمًا ، الدعوة كانت تعتبر فرضًا لابد من تحقيقه لأسرتنا التي لا تسر ، وإلا لن يرى الخير في حياته على يد زوجي!

رقص الجميع ، علت الزغاريد في الآفاق ودوت في الآذان كأصوات البوق تعلن عن الغبطة والفرح الذي تنطق به القلوب قبل الوجوه ، رُفعت كؤوس الخمر ترحيبًا وإعلانًا

وتآخيًا مع العريس الذي لا يرى سوى صورة حسنائه الجالسة بجانبه كحمامة رائعة الجمال ، يخفق قلبه بشدة ويدعو أن تمر الليلة بسلام ، أعصابه مشدودة وهو يداري انفعالاته كأنه جالس على مرجل يمكن له الانفجار في أي لحظة.

ما أن دخل الخمر فم زوجي وتحسسه وذاق طعمه حتى دارت في رأسه الشياطين الشريرة وأفكارها الخبيثة المرعبة التي اعتاد عليها عندما يكون تحت وطأة الشراب الملعون وسحره ، ولم يتم كأسه الثالث حتى انتفض وسط الجموع المحتفلة وهو يدق الأرض بقوة بقدمه كأنه يرقص ، صارخًا بلسان متلعثم وبدنه يتمايل كلهب الشمعة ، وشعره الأشعث الذي يشبه ليف عرنوص الذرة يذهب ويأتي ليبدو هو الآخر راقصا من الفرح.

رفع كأسه وهو يغمغم كوزير متنكر:

- أنا الثور الذي هو أبلد من السلحفاة.

قهقه بعفوية خارقة ، رفع صوته وهو ينظر إلى قيصر الغائص في مقعده بعد أن علا الوجوم محياه وتلبدت سمائه بغمامة سوداء قاتمة كأنه كان يتوقع حدوث المأساة وهذه هي بدايتها...

استطردَ زوجي مسترسلاً كشاعر كافر:
- أنا الذي أكون أبغى من الإبرة ، أحضر عرس عزيزتي وحبيبة قلبي عروسة ابن أختي الغالية.
زأر بأعلى صوته:
- ليردد الجميع من بعدي؛ كأنه ينوي الغناء: بصحة العروسة وبصحة العريس.
ثمَ فجأة تغيرت لهجته التي مازالت عارية من السباب، ناح:
- حسبناه أحمق وهو باخس ، لقد سرقها منا هذا الملعون ، سوف لن نراها ثانيةً ولم يبق إلا أن يخبئها في صندوق!
تابع كمن ينذر بالويل:
- سمِّنْ كلبك يأكلك.
طفق يضحك وهو يتلمظ ويمص شفتيه كالأفعى:
- سأدقُ رأسك يا وقح... وهو يشير إلى المسكين صاحب الفرح ابن أخته!
أردف:
- إنك يا ولد أبخل من صبي، ومنظرك يوحي لي بأنك تشبه التيس، لك أنف يشبه منقار النسر ، وحركاتك لا تعجبني أبدًا فهي تذكرني بحركات وخبث غراب نوح!

قهقه برعونة من جديد: هه... هه... هه... كأنه لم يصدق بأنه استطاع أن يأتي بأمثلة جاءت تتناسب وخطبته البتراء.

عندها وقف أمام العريس ليواجهه مباشرة وهو يقول بتراخ بعد أن جهد نفسه في الحديث وبصوت متهدج:

ـ أنا هكذا أرحب بأحبائي على طريقتي الخاصة!

ثم عاط بوقاحة وصرامة بدت مقلقة وعيناه ثابتتان عليه:

ـ إياك أن تلمسها أو تؤذيها! فهي وكما ترى كالزهرة في رقتها وجمالها، هل فهمت؟!

وإذا بحركة خاطفة منه، سحب فيها مسدسه الكالح كالخنجر وهو يصوبه نحو ابن أخته ويطلق طلقة في الهواء، وهو يزمجر بشكل مخيف كمجنون أعمى:

ـ قلت لك سأقتلك ألا تصدق ما أقول؟

انهار الحفل، تراكضت العائلات هاربة تحاول الفرار من القاعة وأولادهم يبكون من الخوف والفزع بعد أن تركت الفرقة الموسيقية مكانها وغابت عن الأنظار وراء كواليس المسرح.

هذه الحادثة كانت إحدى الأعيب زوجي المعيبة التي يعتبرها هو فكاهة لا يقصد منها غير المزحة الثقيلة!

(٣٠)

من جديد ترك ابني البكر المدرسة... عشنا شهورًا مع أهلي دون أن ندفع لهم شيئًا، هو لا يملك غير حق الخمر، الأخيرة يفكّر فيها كثيرًا ويدبِّر أمرها بسهولة كابن إبليس، لا حياة له دون الخمر...

لاحظتُ أن وجودي يضايق أهلي، فعملت في محل للحلاقة خاص للسيدات في النهار فقط، تركت أطفالي عند أمي وبدأت أعمل، ثم طورت الفكرة، التحقت في المساء بصف لمحو الأمية، بدأت أتعلم فك الحرف، وقتها كنت سعيدة جدًا كأنني دخلت جنة الله، وجدت نفسي، عثرت على أجزائي التي تبعثرت مبكرًا بحُكمٍ لم أقرره لنفسي، أُرغمت عليه اعتقادًا مني بأنه كان قدري المحتوم؛ كنت مخطئة عندما تصورت ذلك، مهما يكن جبروت القدر يظل الإنسان يكافح ويناضل من أجل أشياء يؤمن بها لتحقيقها، الاستسلام يعني الموت السريري، موت في الحياة والتجربة المريرة قوت عودي، علمتني كيف أنبذ التشاؤم وأقبل على التفاؤل بروح مؤمنة بقدرة الله متعطشة للحياة.

(٣١)

الثقة بالغايات تحقق المعجزات

لم أكن أعرف من قبل بأن العمل هو السِّر ، هو الحل ، فيه تكمن المعجزة التي ستنتشلني من الوحل الذي غرقت فيه. اكتشفت نفسي ، أنوثتي ، إنسانيتي التي فقدتها على يد زوجي. ببساطة رجع لي عقلي ، وبدأت أشعر بأن قلبي يدق بشكل منتظم طبيعي وكأنني في عهد ما قبل الزواج...

يمكنني أن أقول دون أن أشعر بالحرج: الذكاء هو السعادة.

(٣٢)

حصل هذا كله بفضل العمل... بعدها عرفت بالضبط ما يتوجب عليَّ فعله ، عرفت بأن الحياة يجب أن تنقاد لا أن تقودنا ، أن تكون لنا كلمتنا ، رأينا ، منطقنا ، حياتنا التي نريدها أن تكون كما نرغب ونشتهي، لا سلطان علينا إلا الله ولا قوة تتحكم فينا غير قوته سبحانه خالق الإنسان والأكوان.

في ذلك الوقت فقط شعرت بأنني أحيا ، أعيش كباقي البشر ، إنسانة طبيعية بشعور وعقل وجسد ، تغيرت حياتي.

بعدها فكرت بأن أتخذ قرارًا سيكون حاسمًا في تغيير حياتي، سيكون قاطعًا كنصل المقصلة ، فيه ستكمن سعادتي وسعادة أولادي ولم أتفوه به لأحد حتى يأتي الوقت المناسب الذي أقرره بنفسي.

(٣٣)

يقول المفكِّر القديم : الخبز وحده هو الذي يجب علينا أن نسعى إليه ، كلما قلّت حاجات الإنسان زادت سعادته ، وكلما زادت طلباته قلَّت حريته

زوجي رغم علمه باعوجاج منطقه يصر على أنه مستقيم! هذا يحدث من فرط أنانيته المقيتة التي يحملها ولا يريد الاعتراف بها ، كثيرًا ما يرجع إلى النقطة الأولى التي بدأ عندها ويكتشف بأنه يعرفها ، ثم يصر بالاستمرار على هذا المنوال ليبدأ من جديد دون أن يكلّ أو يملّ كشيطان رجيم...

• • •

نسينا أن نذكر بأن قلب بطلتنا جمرة ، وصوتها جميلٌ يصلح للغناء ، قلقها كل عالمها ، والقلق بساط من الريح يتموج كالموجة تحت الإنسان.

(٣٤)

التحاق زوجي بالجيش نتيجة الحرب التي اشتعلت نارها بين العراق وإيران جعلني أشعر بالراحة دون أن أدري لماذا! فجأة وجدت نفسي أخوض معركتي مع الحياة من أجل أولادي بشكل مباشر أسهل مما توقعته ، أشرف مما كنت عليه وأنا أحيا الموت مع زوجي... وقتها شعرت بأنني موجودة ، كياني ثابت ، إنسانة بشعور وعقل كما خلقني الله ، لم أحس بأنني مجردة من شيء ، أملك نفسي ، عاملة ، مفكرة وأستطيع أن أقرِّر حسب قناعتي وقدرتي وإمكانيتي؛ أولادي طبعًا كانوا في عيني قبل أن أبدأ بالتفكير ، لذلك ، انتظمت حياتي في بيت أهلي من دون زوجي ، شعرت بالأمان لأول مرة ، الغريب هو أني شاهدت أولادي يضحكون من قلوبهم ، يمرحون بعفوية من صدورهم ، يلعبون ، يتعلمون وهم من كل ذلك سعداء.

كان هذا وحده كافيًا لأن أكون قريبة من اتخاذ قرار لا أفكّر في الرجوع عنه.

(٣٥)

لا شيء أصعب من كسب ثقة الناس

يا الله... شعور طيب لا أعرف كيف أصفه؛ فبعد أن تحسن أدائي في العمل ثبت وجودي ، وباتت صاحبة المحل لا تستطيع التخلي عني، بل زادت راتبي وجعلته الضعف...

في الوقت نفسه كنت مواظبة على الذهاب إلى المدرسة المسائية لمحو الأمية، بدأت أقرأ وأكتب وأنا لا أصدق نفسي؛ ما حصل كان بالنسبة لي يدخل ضمن مفهوم المعجزة، أسأل نفسي بخبل ، كيف يمكن أن يحدث هذا وبهذا الشكل السريع وبعد كل هذا العمر من الظلام والجهل؟! عقود ثلاث وأنا لم أشعر ساعة بأنني حية ، أتنفس وقلبي ينبض كباقي البشر ، كان هذا يروعني حد الجنون ، دائمًا كنت متوترة ، عصبية بشكل لا يطاق عكس ما وعيت وتربيت وتطبعت عليه في صغري ، تحولت فجأة بعد زواجي إلى مومياء خرقاء ، تتحرك وتعمل فقط لأن ذلك واجب حتمي عليها ويجب أن

تفعله شاءت أم أبت... لكن الوضع اليوم تغير ، تغير كثيرًا بشكل لا يُوصف ولا يُصدَّق ، هل بفعل العمل والشعور بالنفس والكرامة حصل هذا بومضة ؟ بطرفة عين ؟ مضى كالسحر دون أن أدرك تأثيره ، سرى فيَّ كالتيار الكهربائي ، لم أره ، لكنني شعرت برجته وقوته وخطره ما أن لامسته!

يا إلهي ، أشعر بأن السعادة تلفني ، تمتصني ، أذهب إليها ، أغوص في أعماقها دون مقاومة ، شعور لذيذ ، جميل كحلم سرمدي لم أذقه من قبل!

(٣٦)

وقتما يرجع زوجي في إجازاته من الجبهة؛ كانت تصرفاته خرقاء كما هي، وسلوكه يؤلمني، يجرحني، يقتلني، خاصة بعد أن عرف بأنني أدرس وأتعلم لعلاج جهلي المظلم، هو لم ينزعج من عملي رغم عدم رضاه، لأنني كنت أجلب له المال، أعطيه كل ما يطلبه، لا أبخل عليه سعيًا للسلامة وراحة البال وطردًا للمواجهة، لكن دراستي التي لا تعود عليه بالفائدة ظلَّ يحاربها بكل ما أوتي من قوه وخبث، مارس معي كل أنواع التعذيب والترهيب، أبشعها ما سأصفه وأحكيه...

(٢٧)

في يوم ، راقب خروجي من المدرسة مساءً بعد أن رفضت الانصياع لأوامره ، اقترب مني أمام النساء الأُخريات ، سحبني بقوة من كتفي ، وعندما استدرت لأعرف منْ يتجرأ ويمسكني بهذا الشكل المشين وجدته هو ، الشرر كان يتطاير من عينيه ، لم أنس قط نظرته تلك ما حييت ، كانت نظرة نمر مجروح ، نظرة أفعى متوثبة أو شيء من هذا القبيل يصعب عليَّ وصفها ، باغتني بلطمي على وجهي فجأة ، سقطتُ على الأرض ، لم أتوقع فعلته ، تمرغت في التراب ، تدحرجت في الدرب ، لم يكتفِ بذلك ، سحلني من ثوبي كما تُسحب المرساة جرَّني بغباء ساحق... بدأتُ أصرخ وأستغيث ، تمنيت الموت لحظتها صادقة من كل قلبي ، خجلي كان الموت ذاته ، ارتفع ثوبي إلى أعلى من ركبتي ، شعرت بأنني أصبحت شبه عارية وهو يسحبني كما تُسحب النعجة بقسوة بغية ذبحها ، لم يتركني إلا بعد أن قلت له كاذبة ، بأني لن أقرب المدرسة مرة أخرى...

تركني وسط الشارع متمددة كغريق انتشل لتوه من البحر ،

بين الموت والحياة ، أنزف دماءً أجهل مصدرها ، أبكي بتشنج منكمشة على نفسي كأن أحدهم فض بكارتي أمام الناس دون رحمة أو خوف من الله!.

كان هذا أخر موقف مشين أقبله على نفسي ، بعدها قررت وحسمت أمري بعد أن توكلت على أرحم الراحمين، سبحانه وتعالى.

(٣٨)

بعد تلك الواقعة المهينة أقسمت بأن أحسم أمري كما ذكرت، عرفت كيف يؤكل رأس الأفعى إن صحَّ التعبير ، أصبحت واثقة من نفسي ومن تحركاتي ، هذا لم يأت من فراغ أو أنانية تسلطية، لا، من عاش حياتي ورأى ما شاهدته لا يمكن له أن يكون إلا منصفًا في تقديره لي وما سأفعله.

عرفت بالفطرة التي لا ينقصها الخيال بأن الخبز قبل الحرية، الكرامة أهم من المال ، والإنسانية شيء مقدَّس يجب أن لا تُهان.

اختليتُ بأمي يومًا ، قلت لها ما أريده دفعة واحدة ؛ قلت لها بالحرف دون مراوغه أو خوف ، ولماذا الخوف ؟ بل ممن ؟ كنت أعمل وأدرس وأولادي يعيشون بكرامة وبشكل إنساني نظيف ، ماذا أريد أكثر من هذه النتائج التي توصلت إليها ؟ كل ذلك حصل من دون زوجي ، هذا هو لُبُّ وصلب الموضوع لمن يريد أن يفهم دون أن يتلسن:

- أمي الحبية، وقفتك معي لا يمكن لي أن أنساها، لكن، جاء الوقت لمصارحتك فيما يجول بخاطري بشكل صريح لا يقبل

الشك أو التأويل...

بصوت رحيم:

- أفصحي يا بنتي، ما وراءك؟

- أريد أن أستقل مع أولادي في شقة لوحدنا، يكفي ما فعلتِه من أجلنا لحد هذه اللحظة، وكما تعرفين، أعمل ولي راتب يجعلني أستطيع أن أتكفل بمصاريف معيشتي، واخترت أن نحيا بشكل طبيعي في بيت مستقل...

وقبل أن تقاطعني، تابعتُ:

- هذا من جانب، المسألة الأهم هو قراري بالانفصال عن زوجي...

ثم سكتُ، سكت لأنني عرفت قوتي، قوتي كانت تكمن في عملي وفك الخط، فهمي للحياة، رؤيتي لها بمنظار آخر غير الذي كنت أرى من خلاله العالم مع زوجي، هي لا تستطيع أن ترفض الآن أو تجبرني ولا حتى زوجي، من يرفض ويعارض يشرب من البحر، يدق رأسه في الصخر، ينطح الحائط لو شاء، لكنني ثُرتُ وانتفضت، ثورتي من أجل إنسانيتي، كرامتي ومن أجل حياة نظيفة لي ولأولادي وكل هذا يقع ضمن نطاق ما أراده الله سبحانه لخلقه، وأنا لم أشأ

مخالفة خالقي في أمر.

بعد صفنة قصيرة، نشدتْ:

- زوجك ظالم، والله لن يقبل بالظلم ولا بالظالمين... سيري في طريقك ما دمتِ مؤمنة بأنه الصحيح، وسيكون الرَّبُ رفيقًا رحيمًا معكِ، أنا متأكدة من ذلك.

وما أن نطقت بتلك الكلمات حتى ذرفت الدموع دون إرادة، وقفتُ فوق رأسها وقبَّلتُ شعرها الفضي بفعل السنون، ممتنة منها ومن موقفها الشجاع.

(٣٩)

أنا "ن.ن" المرأة العراقية الشقية المعذبة، أقصد، التي كانت معذبة، بطلة الحكاية، في نهاية الحلقة الخامسة من عمري اليوم، أعيش بالقرب من أولادي وأحفادي سعيدة، مرتاحة، لا ينقصني غير محو تلك الذكريات الأليمة المخجلة من مخيلتي، ما بين تلك الفترة التي عشتها ميتة في العراق وما بين رحلتي إلى أقصى الأرض مع أولادي عندما كبروا سعيًا للسلامة ابتغاءً للحرية والعيش النظيف أترك سردها لكاتبنا "الوالي" الذي وعدني بأن يدونها على طريقته وبأسلوبه في كتاب...

أحب أن أقول هنا كلمة:

- من الجلسة الأولى نطق القاضي العادل بالحكم الغيابي، ساعدني في وقتها خالي الطيب "د" رحمه الله في تلك القضية التي رفعتها ضد زوجي أطالبه بالطلاق للأسباب التي حاولت سردها لصديقتي "أ. ف" لضعفي في التعبير الأدبي، لذلك التجأت إليها بغية تسجيل تلك النصوص من سيرة حياتي التي كتبتها باللغة السويدية التي أجيدها اليوم

جيدًا، ثم طلبت من الكاتب "الوالي" أن ينشرها...

بعد أن قرأها وأُعجب بها ؛ قرر كتابتها بأسلوبه الخاص مضيفًا لها نكهة الدراما الأدبية المطلوبة، تلك التي أطلعت عليها من خلال الأجزاء الأربعة التي نشرها ونالت تفاعل وإعجاب الجمهور بشكل لا يصدق، جعلني أشعر بالاعتزاز لما فعلته وقمت به، ليس لشيء، إلا ليكون عبرة للآخرين، مثالاً ونموذجًا تتجنبه المرأة قبل أن تسقط في وحل الشقاء الذي غرقتُ فيه لسنواتٍ طوال، هذا كان هدفي من كل ما أقدمت عليه بتدويني لتلك النصوص...

أشكر الجمهور الذي شدَّ من أزري وشجعني وقال فيّ الكلمة الطيبة، تخونني الشجاعة الآن في التعبير، سأترك قلم كاتبنا هو الذي يعبِّر عما يخالجني من فرح وغبطة.

• • •

عند نهاية الرواية لا بد من تدوين بدايتها، نعني، كيف بدأت تلك الأسرة حياتها في الغُربة؟، وكيف استطاعت الخروج من العراق وتأسيس كيان مستقل وثابت لهم؟... المعادلة كما تبدو صعبة، لكنها سهلة لمشيئة وإرادة الله، جعل ابنها البكر يصل السويد أولاً بمفرده، عمل الشاب، ثابر وسعى حتى

تمكن من مساعدة أمه وإخوته الذين يصغرونه، دفع لهم حق وصولهم بعد أن جهَّز لهم سكنًا ملائمًا يناسبهم، وما هي إلا أشهر قليلة حتى قرَّر الزواج من إحدى أقربائهم، من دينه، كان هذا الموقف إعادة حياة بعد موت للأم، أمنيتها كانت أن ترى ابنها يتزوج من فتاة من دينه، ففتح الطريق لأخته، تقدم لها شاب من قومها، تزوجها.. وبذلك وجدت الأم وقتًا للعناية بنفسها من خلال إتمام دراستها رغم تقدمها في السن، في النهار تدرس، وفي نهاية الأسبوع تعمل في صالون حلاقة معروف في مدينتها التي تقطنها...

هكذا رسخت حياتها واستقرت أمورها الاجتماعية والمادية وهي ترى ثمرة تعبها من خلال أولادها تنضج كل يوم وتكبر.

(٤٠)

ما تمَّ ذكره ، سرده ووصفه من مأساة لم تنتهِ، سيظهر لنا زوج البطلة بشكل آخر ، بهيئة مغايرة ، وباسم مختلف من جديد على ساحة الحياة... توخوا الحذر ، هناك الملايين تشبهه ، المشهد سيتكرر ، لم يُسدل الستار بعد ، هناك الكثير من المشاهد والفصول مازالت تنتظر عرضها للجمهور ، سأدوِّن ما أستطيع تدوينه ونشره لو منحنى الله العمر ، وإن لم يمنحني ستظهر رغم ذلك بعد أن نتوكل لأنها ستكون في ملفاتي موجودة ، ستظهر بطريقة أو بأخرى ، وأول ما ستظهر هذه النصوص على شكل كتاب ، رواية بعنوان "امرأة من الشرق"... أعدكم بذلك.

المؤلف في سطور

- روائي وقاص عراقي ، من مواليد بغداد ١٩٦٥م.
- درس الهندسة الزراعية في جامعة بغداد
- هاجر مع زوجته إلى ألمانيا عام ١٩٩٠م.
- أسَّس مجلة باللغة العربية بعنوان (ميمرا الكلمة) في ميونيخ عام ١٩٩٩م ، وترَّأس تحريرها.
- نشر مجموعة كبيرة من القصص القصيرة والحكايات والمقالات في مواقع ومجلات عربية عديدة منها : مجلة آفاق مندائية ، مجلة العهد ، مجلة أقلام الثقافية ، مجلة أصوات الشمال ، الناس ، أدب ، شبكة حنين ، وطيور دجلة ، وغيرها الكثير.
- له محاولات عديدة في الرسم.
- أقام أثناء دراسته في الجامعة ثلاثة معارض رسم تشكيلي.
- أسَّس في عام ٢٠١٤ م رابطة للأدباء والفنانين والمثقفين المندائيين وعمل في لجنتها التحضيرية عامين.
- أسَّس في عام ٢٠١٧ منتدى تحت اسم "منتدى الوالي الحُر للقصة القصيرة" يشجِّع فيه كل المواهب الشابة من خلال صفحته الإلكترونية الخاصة.

• الإصدارات :

- نتاج السنين : مجموعة قصصية. مطبعة فاكَنر ، ميونخ ٢٠٠٥م
- الشك وأشياء أخرى : مسرحية. مطبعة فاكَنر ، ميونخ ٢٠٠٧م
- الدين والنبي في التاريخ : دراسة. مطبعة فاكَنر ، ميونخ ٢٠١٠م
- الموتى لا يتكلمون : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام القاهرة ٢٠١٤م
- الهروب إلى الجحيم : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام القاهرة ٢٠١٤م
- عجائب يا زمن : مجموعة قصصية. شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٥م
- أَنْهُر بنت الرافدين : رواية . شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٦م
- طاعون الشرق : رواية . شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٦م
- الـوهـم : رواية . شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٧م
- امرأة من الشرق : رواية . شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١٧م

- **إصدارات تحت الطبع :**

- العودة : رواية . شمس للنشر والإعلام ، القاهرة

- من داخل الزنزانة : مجموعة قصصية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة

- تأملات في عالم الإنسان : مجموعة مقالات . شمس للنشر والإعلام ، القاهرة

- **البريد الإلكتروني : haitham65@hotmail.de**

(+2) 01288890065

www.shams-group.net